مجلة رفوف – مخبر المخطوطات – جامعة أدرار – الجزائر ــــــــــــــــــــــــ المجلد: 10 / العدد: 02 (جويلية2022) ص 238- 257
ISSN: 2335-1381 EISSN: 2602-5949 Legal Deposit: 2013-6352

الأدب الجزائري المعاصر بين أسباب التطور وأسباب الركود

من الخمسينيات إلى السبعينيات

Algerian Contemporary Literature between Development and Stagnation Causes during the Period from the Fifties to the Seventies

الدكتور: وليد خالدي

جامعة طاهري محمد– بشار – (الجزائر)، walidkhaldi18@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/03/24	تاريخ القبول: 2022/07/10	تاريخ النشر: 2022/07/14

الملخص: إن الأدب الجزائري خلال مسيرته الطويلة ظل ملازما ومخلصا لقضايا الأمة العربية بصفة عامة والوطن الجزائري بصفة خاصة، معبرا عن آلام الشعب وآماله بكل ما تحمله الكلمة من معاني الصدق والوفاء. حيث تميزت كل مرحلة من هذه المراحل بميزة خاصة في التعبير عن الواقع المعيش، وذلك عن طريق البحث الدؤوب في اقتناء الأدوات الفنية الجديدة والوسائل التعبيرية الجمالية، التي تسهم إلى حد كبير في إثراء الأعمال الأدبية، من هذا المنطلق، تتناول هذه الورقة البحثية رصد ملامح تطور الأدب الجزائري المعاصر بوجهيه الشعري والنثري، وذلك من خلال الوقوف عند أهم العوامل أو المحطات البارزة التي تشكل البؤرة الأساسية؛ للانطلاقة الفعلية للأدب الجزائري المعاصر سواء على صعيد الشكل أو المضمون، وذلك ابتداء من ثورة الفاتح من نوفمبر 1954م، وانتهاء بفترة السبعينيات من القرن المنصرم.

الكلمات المفتاحية: الأدب الجزائري، أول نوفمبر، الأشكال التعبيرية، التطور، الركود.

Abstract: The Algerian literature, during its long existence, remained close and faithful to Arabic nation concerns in general and Algerian ones in particular. It expressed people's sorrows in all their sincere and loyal meanings. In every stage of its growth, the Algerian literature was characterized by peculiar aspects in expressing the lived reality by means of acquiring new artistic tools and aesthetic expressive ways consequently, literary works were highly enriched.

This research work surveyed evolution aspects of contemporary Algerian literature, be it poetry or prose, through the study of important factors or stages which constituted the real beginning of contemporary Algerian literature in form and content, from the starting of the Algerian revolution on November 1st, 1954 till the end of the seventies.

Keywords: Algerian literature, November 1st, expressive forms, development, recession.

المؤلف المرسل: د.وليد خالدي، **الإيميل**: walidkhaldi18@gmail.com

1.مقدمة:

مما لا شك فيه، أن الاحتلال الفرنسي يشكل معلما بارزا ومنعرجا حاسما في تاريخ الجزائر، ومن الحقائق التي لا ينبغي لأحد منا أن ينكرها، أن الجزائر واجهت في تاريخها الحديث أعنف استعمار عرفته البشرية، إذا قورنت بمثيلاتها من الدول في الوطن العربي، فعانت الويلات من جرائه، وسلبت حلاوة الحرية في عقر دارها، واغتصبت في أرضها ظلما وكرها، بالإضافة إلى ممارسة سياسة انتهاك الحرمات والتجويع والتشريد والاضطهاد بمختلف أشكاله وأنواعه، ديني واجتماعي وسياسي... ومثلما حظي تاريخ الجزائر بهذه الخصوصية والميزة والاستقلالية والفرادة، كذلك كان حال الأدب وشأنه في هذه الحقبة، مرآة عاكسة لهذا التاريخ وشاهدا على تحولاته ووقائعه وأحداثه. وتبعا لذلك، فإن الأدب الجزائري خلال مسيرته الطويلة ظل ملازما ومخلصا لقضايا الأمة العربية بصفة عامة والوطن الجزائري بصفة خاصة، معبرا عن آلام الشعب وآماله بكل ما تحمله الكلمة من معاني الصدق والوفاء، حيث تميزت كل مرحلة من هذه المراحل بميزة خاصة في التعبير عن الواقع المعيش، وذلك عن طريق البحث الدؤوب في اقتناء الأدوات الفنية الجديدة والوسائل التعبيرية الجمالية، التي تسهم إلى حد كبير في إثراء الأعمال الأدبية.

وعلى هذا الأساس، فقد ارتبط الكتاب والأدباء أشد الارتباط بهذه الأحداث وجعلوها نصب أعينهم، والتزموا بها وبقضايا شعبهم ووطنهم، فسخروا أقلامهم راجين من وراء هذا كله توطيد الصلة والعلاقة بين الإنسان وأرضه، والتمسك بهويته ودينه ومعالمه الشخصية والوطنية، وبتراثه وعاداته وتقاليده؛ لأن العلاقة القائمة بين الكاتب والمجتمع هي علاقة الروح بالجسد، فالأديب هو بمثابة المنبع أو الوقود الذي يحرك الهمم ويشحنها، ويغذيها معنويا لتكون العون والمدد الذي يخرج الشعب من سباته، بغية توعيته لأنه السلاح الأنجع في تكوين وبناء أرضية صلبة سليمة، حتى لا يتسنى للعدو زعزعتها وهزها من مكانها، فبذلوا النفس والنفيس، والغالي والرخيص في مقاومته، لكي يضمنوا لهذا الشعب الاستمرار في هذه الحياة، وغرس ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا من مبادئ وقيم، ونشر للوعي، ودعوة صريحة للتلاحم فيما بينهم، ورفع شعار التحدي، وتعزيز روح الانتماء للوطن.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن الكلام الذي ذكرناه آنفا فيما يخص الحديث عن الأدب والرسالة التي يحملها في طياته، لا يشكل دائما النواة التي من خلالها يتم تغيير الأحداث ومجرياتها وبلورتها لصالحه، ولكننا نقول: إن الأدب يعتبر دافعا من بين مجموعة من الدوافع الصلبة والقوية، حيث يسعى جاهدا إلى كشف اللثام وإماطته عن الأشياء المتوارية والمتخفية التي تغيب في معظم الأحيان عن كثير من الناس، كما يعمل في الوقت نفسه على انتشال هذه الحياة والأوضاع التي تواجهنا من حالة الكمون والجمود والسكون، إلى حالة تدب فيها الحركة والحيوية

والدينامية، ومجابهة كل ما هو زائف وغربلته لإبراز صحيحه من فاسده وجعله واضحا. من هذا المنطلق، نرصد رهانات ملامح تطور الأدب الجزائري المعاصر بوجهيه الشعري والنثري، من خلال الوقوف عند أهم العوامل أو المحطات البارزة التي تشكل البؤرة الأساسية؛ للانطلاقة الفعلية للأدب الجزائري المعاصر سواء على صعيد الشكل أو المضمون، وذلك ابتداء من ثورة الفاتح من نوفمبر 1954م، وانتهاء بفترة السبعينيات من القرن المنصرم.

تطالعنا في هذا الصدد الأسئلة الآتية: ما الأسباب الداعية لخوض غمار الكتابة؟ وماهي الأدوات الفنية والجمالية والوسائل الإجرائية المساعدة في تجاوز الأزمة الوجودية؟ وأين تكمن نجاعتها في خدمة الواقع المعيش مقاربة وقراءة؟ وإلى أي مدى تفاعل الكتاب والمبدعون الجزائريون مع الأحداث والمستجدات الجديدة؟ وكيف تجسد حضور الثورة التحريرية داخل أعمالهم الإبداعية؟ وهل استطاعت الأشكال التعبيرية الحداثية مواكبة التطورات على كافة المستويات شكلا ومضمونا؟.

2. مرحلة الانطلاق(أول نوفمبر 1954م/ 1962م):

إن الحديث عن الأدب الجزائري المعاصر هو حديث بلا شك عن ذلك الأدب الذي التصق التصاقا بالأرض، بفعل الظروف التي أوجدتها الأحداث وملابسات الحياة سواء على المستوى السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي أو الثقافي، فأضحى الوطن بالنسبة للأديب الجزائري يمثل قطب الرحى، فراح يستلهم مجموعة من الوسائل الفنية لينسج بها إبداعاته، كأدوات مساعدة ومؤثرة تساهم في تفعيل كفة المجتمع وتوجيهها إلى المسار الصحيح الخالي من كل الشوائب " فانطلق الأدباء يعانقون معطيات الحياة الجديدة، ويصورون قضايا الواقع ويعبرون عن تطلعات المجتمع، فكان العالم الذي يستولي على اهتماماتهم ويغلب على نتاجهم، إنما هو عالم الوطن، وعالم الأمة، وكل ما يتصل بهما ويتفرع عنهما من قيم ومقومات وقضايا واهتمامات، و كان صوت الوجدان الجماعي لدى هؤلاء الأدباء أقوى من صوت غيره في نفوسهم مما جعلهم يسخرون أعمالهم للنهوض بالواقع والتعبير عن قضاياه " (بن سمينة 2003م، ص 92.) وبما أن الأدب يعد من بين الظواهر الثقافية البارزة وشكلا من الأشكال التعبيرية، فإنه يتفاعل بشكل جدي مع أحداث الواقع المعيش، بحيث تتم بينهما علاقة جدلية حميمية قائمة على عنصر التأثير والتأثر، ولذلك ألفينا الأدباء والشعراء يعايشون هذه الأحداث، ويعملون على استيعاب قضايا الشعب الثائر، ومن ثم يقومون بعرضها في قالب فني إبداعي من خلال رؤية اجتماعية واقعية ناضجة، استمدت خصوبتها من واقع المجتمع بكل سلبياته وإيجابياته.

ويمكن تلخيص ذلك في هذه المحاور:

1- الانصراف عن الأغراض الذاتية الضيقة والالتزام بالتعبير عن الوجدان الجماعي للأمة.

2- الاندماج في الواقع الوطني والعمل من أجل النهوض بالمجتمع وترقيته وإصلاح حاله: عقيدة وفكرا، وعلما وعملا.

3- الدعوة إلى الأخذ بالأسباب والانفتاح على العصر والإقبال على الحياة.

4- الحض على الاستمرار في حركة الجهاد لإفشال الخطط التغريبية إزاء عناصر الهوية الحضارية المتعدى عليها، والمنافحة عن الحقوق الوطنية.

5- مواكبة مسيرة الثورة وحث الشعب على الالتفاف حولها وتصوير ملامحها والتلويح ببشائر النصر على فلول المعتدين.

6- التعاطف مع قضايا الأمة العربية الإسلامية والمشكلات الإنسانية. ويمكن أن نميز في هذه الاهتمامات جملة من المضامين من بينها: البعد الديني، الوطني، الاجتماعي، الوجداني، الثوري، القومي، الإنساني (بن سمينة 2003م، ص 92.).

فالأدب الجزائري بجميع ألوانه الفنية والمتنوعة والمتمثلة في الشعر بنوعيه، والمقالة والقصص والروايات على اختلافها، كان دائما مسايرا ومتعايشا مع الأحداث صغيرها وكبيرها، وملازما لها مصورا للمعاناة والمآسي التي خلفتها الحروب، ومشيدا وممجدا ومخلدا للبطولات عبر التاريخ، فضلا عن ذلك، إلى تلك التغيرات والتحولات الجذرية التي شهدها المجتمع بفضل السياسة التي تنتهجها الدولة، كان لا بدّ لهذا كله من أن يحدث ويخلف آثارا تنعكس بشكل طبيعي على الحياة الثقافية والأدبية. وبهذا كانت ثورة الفاتح من نوفمبر 1954م الشرارة التي فجرت كوامن الإبداع لدى الشعراء والمبدعين والكتاب، فبرزت أسماء لامعة لعبت دورا أساسيا وقويا على الساحة الأدبية، ولما كانت الكلمة بالنسبة إليهم المفتاح والمادة الخام للأدب والوقود الرئيسي والسند الحقيقي، أضحى الأدب بالنسبة لهم جزءًا لا يتجزأ من واقع الإنسان، سواء في غدوه ورواحه، وفي حراكه وسكونه، ليكون تعبيرا عن الحياة بكل مقوماتها ومشاربها المختلفة: الدينية والاجتماعية والسياسية والفكرية، لأنها من اختصاصه ومهامه، وعلاوة على ذلك، يعد الأديب في هذا الشأن الفاعل الحضاري في بيئته ومجتمعه وأمته، فتفاعل مع هذا الواقع المرير نتيجة الظروف التي أوجدتها السياسية الجديدة والتحولات الجذرية العميقة التي يشهدها المجتمع الواحدة تلو الأخرى، فأدى هذا كله إلى تكوين وعي ثقافي، انعكس هذا بطبيعة الحال على الحياة الأدبية والثقافية، فوجد الكتاب والأدباء ضالتهم، وكانت الثورة الدافع والمحفز الذي أثار فيهم الفضول فتحركت الأقلام وجادت القرائح وانفجرت العواطف، فصاغوا أعمالهم في قوالب فنية رائعة تدور معظم مواضيعها عن الثورة التحريرية. وفي هذا الصدد يقول أبو القاسم سعد الله " حين اشتعلت الثورة اذكت العواطف وهزت المشاعر الأقلام التي كانت من قبل مكبوتة، وفتحت أمام

الشعر آفاقا ما كان يستطيع أن يحلم بها لولا الدم والنار والحديد . وقد تفجرت نتيجة لذلك، عواطف الشعراء، بشعر ثوري عارم يسجل انتصارات الثورة ويبشر بالاستقلال والغد الحر، ويتغنى بالوطن والحرية، ويشارك المحزونين والمتألمين، ويضمد الجراح ويكفف الدموع، ويخلد الشهداء، والأبطال والوقائع " (أبو القاسم 1985م، ص 45-46.)

والجدير بالإشارة هنا أن ثورة الفاتح من نوفمبر تعتبر من أهم العوامل الرئيسية على الانطلاقة الفعلية للأدب الجزائري المعاصر، حيث شهد في هذه المرحلة تطورا وتغيرا ملحوظا فاكتسى حلة وثوبا جديدا سواء على مستوى الشكل أو المضمون، فتنوعت الأشكال الأدبية وتعددت مضامينها، وتميز شعر هذه المرحلة " بالروح الوطنية المشتعلة سواء في تناوله لمواضيع ثورية مباشرة أو مستوحاة من الواقع العربي. كما تميز بالحماس الطائر والعاطفة المجنحة، ويفتقر إلى الخيال الموحى والتأمل الخلاق. ومن شعراء هذه الفترة نذكر أحمد الباتني، ومحمد صالح باويه، وصالح الخرفي، وأبو القاسم خمار، وعبد السلام حبيب، وعبد الرحمان الزناقي " (أبو القاسم 1985م، ص 47.) والشيء الجديد الذي يثير انتباهنا في هذه المرحلة، أن الموضوعات الإصلاحية التي كانت سائدة من ذي قبل بدأت تتراجع وتتقلص تدريجيا، فحلت محلها موضوعات جديدة تستلهم الواقع بكل مستجداته حيث أثرت الثورة التحريرية في مضامين الأدب وأشكاله، وارتسمت موجة جديدة على الأدب بصفة عامة والشعر خاصة " فقد كانت البذرات الأولى الواعية بضرورة تغير النص الشعري الجزائري تغيرا شكليا وجماليا في الممارسة النصية، مرافقة لتغير البنيات الفكرية والشكلية للمجتمع الجزائري، ومصاحبة لبداية تكوين الدولة الوطنية في انطلاقتها الثورية ضد المستعمر " (رابحي 2003م، ص 63.) واتسم بروح جديدة على مستوى الشكل، وكانت النتيجة انتعاشه بزي مغاير عما كان عليه الشعر آنذاك أي الشعر العمودي، فظهر جيل جديد من الشعراء الشباب يكتبون بشكل حداثي ينعت بالشعر الحر، حيث يؤكد معظم الدارسين على أن" البداية الحقيقية الجادة لظهور هذا الاتجاه، إنما بدأت مع ظهور أول نص من الشعر الحر في الصحافة الوطنية، وهو قصيدة طريقي لأبي القاسم سعد الله المنشورة في جريدة البصائر بتاريخ 23 مارس 1955 " (ناصر 1985م، ص 149.)٠

يقول فيها: يَا رَفِيقِي

لا تَلُمْنِي عَنْ مُرُوقِيْ

فَقَدِ اخْتَرْتُ طَرِيْقِي

و طَرِيْقِي كَالْحَيَاةِ

شَائِكُ الأَهْدَافِ مَجْهُولُ السِّمَاتِ

عَاصِفُ التَّيَّارِ وَحْشِيُّ النِّضَالِ

صَاخِبُ الأَنَاتِ عِرْبِيدُ الخَيَالِ

كُلُّ مَا فِيهِ جِرَاحَاتٌ تَسِيلُ

وَظَلامٌ وَشَكَاوَى وَوُحُولٌ

تَتَرَاءَ كَطُيُوفٍ

مِنْ حُتُوفٍ

في طَرِيْقِي

يَا رَفِيقِي (بن قينة 2009م، ص 78.)

ومن بين النماذج التي يمكن استحضارها أيضا في مجال الشعر على مستوى الشكل الشاعر عبد السلام حبيب من قصيدة له بعنوان (مصرع خائن) يتحدث فيها عن البطل محمد بن صادق الذي اغتال الخائن علي شكال على مرأى من الآلاف في باريس ويتحدث فيها عن الروح الفدائية، وعن الذعر الذي أصاب الفرنسيين إثر الواقعة:

خذها، ودمدم من مسدسه رصاص

خذها، فقد حان القصاص

الويل لك

يا خائن الشعب الجريح

لن أستريح

حتى تموت سأقتلك

باسم الوطن

باسم الجراح الراعفه

باسم الجموع الزاحفه

باسم الجزائر والنضال

خذها رصاصة ثائر

حر الضمير جزائري ... (أبو القاسم 1985م، ص 47.)

إن إشراقة هذا اللون من الشعر في خضم الحركة الأدبية الجزائرية أوجدته مجموعة من الظروف والأسباب، التي تطلبتها الحاجة الملحة من أجل مسايرة الحياة المعاصرة بكل تناقضاتها وايجابياتها، الشيء الذي دفع الشعراء إلى البحث عن قوالب فنية جديدة يستطيعون من خلالها؛ الخروج عن القوالب الفنية المألوفة للتعبير عن خلجاتهم ومشاعرهم النفسية النابعة من صدق العاطفة، والتي تفضي بهم في آخر المطاف إلى الإجابة عن أسئلة وروح العصر، فعمق ذلك من إحساسهم فشعروا " بضرورة التحول عن هذا القالب التقليدي الهندسي الصارم إلى قالب جديد يستجيب لمتطلبات الحياة المعاصرة، ويتفاعل مع التطورات السياسية والثقافية والاجتماعية التي كانت تشهدها الجزائر بعد الحرب العالمية الثانية " (ناصر 1985م، ص 152.).

كما يعد الشاعر أبو القاسم خمار من خيرة الشعراء الذين يمثلون هذه المرحلة، تاريخيا وفنيا، حيث تعتبر قصيدته المعنونة بـ (منطق الرشاش) من القصائد التي تشتمل على خصائص كثيرة من روح ذلك العصر، حيث جاء فيها:

لا تُفَكِّرْ ... لا تُفَكِّرْ ...

يَا لَهِيبَ الحَرْبِ زَمْجِرْ ... ثُمَ دَمِرْ ...

فِي الذَّرَى السَّمْرَاءِ مِنْ أَرْضِ الجَزَائِرِ ... لَا تُفَكِّرْ ...

مَزِّقِ الأَحْيَاءَ ... أَشْلَاءً ... وَبَعْثِرْ ...

حَطِّمِ الطُّغْيَانَ ... كَسِّرْ ...

وَانْشُرِ الإِرْهَابَ ... وَالنِّيرَانَ ... أَكْثَرَ

ثُمَّ أَكْثَرَ ...

وَإِذَا نَادَاكَ غِرٌّ ... فَتَحَجَرْ ...

وَتَمَرَّدْ ... وَتَكَبَّرْ ... لَا تُفَكِّرْ ...

سَوفَ تَظْفَرُ

قُوَّةُ المِدْفَعِ ... وَالَّرشَّاِش ...اللهُ أَكْبَرُ ... الخ ...

فالقصيدة تتشكل من 32 سطرا، في شكل جمل متوثبة قصيرة، تمثل انعكاسا لغويا للفعل الثوري السريع على ساحة الحرب، إضافة إلى معجم ثوري واضح ومباشر (الحرب، زمجر، أشلاء، حطم، كسر، النيران، الإرهاب، المدفع، الرشاش، بركان، الدم، أحمر، لهيب، الله أكبر، ...) " لا تفكر " هي الجملة اللازمة لهذا النص، إذ يستهل الشاعر بها قصيدته، ويكررها طيلة مقاطعها الثلاثة (08) مرات كاملة، تأكيدا دلاليا منه على إزاحة أي تردد يمكن أن يشوب العقلية الشعبية الجزائرية آنذاك (وغليسي 2009م، ص 104-105.). فالشاعر بتجربته هذه يحمل نزعة وطنية هدفها نبيل يطمح من خلاله لغرس طيب يفوح بالعواطف السامية والأخلاق العالية، التي تروم التمسك بحبل الحرية والكرامة، والنفور من ذل الهوان والعبودية، وتحبيب الثورة للمجتمع. وبشكل عام، فإذا نظرنا إلى الفترة الواقعة ما بين عامي 1954- 1962 كما ذهب إلى ذلك الناقد السوري أحمد دوغان فإننا نجد أن الشعراء الجزائريين قد التحموا فيها بالنضال والمقاومة، وشاركوا الشعب في كفاحه الوطني، حتى أد بأحد الأدباء القول" الشعر والحرب شيء واحد، وقصيدتي هي الشعب" وبالتالي، ظهرت لغة جديدة جسدت معايشة الشعراء للعمل الثوري، نستحضر في هذا الشأن على سبيل التمثيل لا الحصر، شاعر الثورة مفدي زكريا في قصيدته الشهيرة " وتعطلت لغة الكلام "

نطق الرصاصُ فما يُباحُ كلام * وجرى القصاص فما يتاح ملام!

وقضى الزمان فلا مردّ لحكمه * وجرى القضاءُ وتمّتِ الأحكام

وسعت فرنسا للقيامة وانطوى * يوم النشور وجفّتِ الأقلام

والقابضون على البسيطة أفصحوا * والكون باح وقالت الأيام

وتعلم المستعمرون شعوبها * أنّ التحكم في الشعوب حرام

هم حرّروا الميثاق هلاّ حرروا * أُمَماً تسامُ حقارةً وتضامُ

ما إن تقام لما يسطّر حرمةٌ * أو يعضد القلمَ الرفيعَ حسام

السيفُ أصدق لهجةً من أحرفٍ * كُتبت فكان بيانُها الإبهام

والنارُ أصدقُ حُجّةً فاكتب بها * ماشئت تُصْعِقْ عندها الأحلام

إنّ الصحائف للصفائح أمرها * والحِبرُ حرْبٌ والكلام كِلام. (مفدي زكريا، ص 41-42)

ومثلما حظي الشعر بوجهيه بهذه الميزة المتجلية في التعبير عن قضايا الأمة على العموم والوطن على وجه الخصوص، وكانت له بصمة حاضرة وقوية في تصوير الوقائع، وإثراء الحركة الأدبية ودفعها قدما نحو الازدهار، كذلك الشأن بالنسبة للنثر الجزائري فقد كانت اللمسة حاضرة، ومثلما استطاع الشعراء القيام بأداء دورهم على أكمل وجه، استطاع " الكتاب من جهتهم أن يصوغوا تجاربهم المختلفة في ألوان عديدة من النثر كان أهمها النثر الديني والاجتماعي والسياسي وغيرها، وقد عالجوا في هذه الألوان معظم ما عرفه النثر العربي من أطر فنية فكتبوا في ... المقالة والمسرحية والقصة والرواية " (بن سمينة 2003م، ص 98-99.) وما كانت اللغة إلا وسيلة أو أداة للتعبير من أجل الدفاع عن الذات المتألمة والوقوف إلى جانبها، ومن ثم، فإن قيمة العمل الأدبي تكمن نجاعته في مدى صدق هؤلاء وإخلاصهم تجاه وطنهم وشعبهم، وما تحمله أعمالهم من مضامين فكرية واجتماعية. وعلى هذا الأساس " فبالرغم من أن الأديب الجزائري كان دائما يعانق التجديد والتطور والحداثة، إلا أنه كان متمسكا بهويته العربية، إذ أنه كتب بها وأبدع، أو حتى عندما أرغم على الكتابة باللغة الفرنسية فقد كانت لدى بعض المبدعين مجرد أداة أبدعوا بها ووظفوها في خدمة قضاياهم، وكانوا صادقين في مواقفهم ومبادئهم " (ولد العروسي 2012م، ص 16.). ونذكر في هذا الشأن الكاتب ياسين، ومولود معمري، ومحمد ديب وغيرهم.

ولا غرو أن هذه الظروف التي اتسمت بمسحة جديدة كانت المدد والسند الذي ساهم في تطور الأدب وازدهاره من الناحية الفنية والجمالية، مقرونا أيضا بتلك التطلعات التي تنحو منحى ايجابيا بالإطلاع الواسع على الحياة الأدبية العربية والغربية الحديثة والمعاصرة، إما عن طريق السفر خارج البلاد أو الاحتكاك المباشر أو بسبب العوامل السياسية أو الترجمة، واستطاع الأدباء على إثرها أن يجسدوا هذه الأشكال الأدبية الجديدة التي هيأت لظهورها الثورة التحريرية، وتمثلوها في أعمالهم الإبداعية خصوصا القصة القصيرة، وذلك لما لها من قدرة خلاقة على تصوير الأحداث والوقائع، حيث حظيت " بجزء هام من هذا التطور فتنوعت أشكالها، وتغيرت موضوعاتها، وظهر كتاب شبان خارج الوطن دافعوا عن الجزائر بالكلمة، وعرفوا بقضايا الشعب السياسية، والاجتماعية، والثقافية " (شريبط 1998م، ص 16.). فطوروا من أدواتهم التعبيرية فوظفوا الرمز والأسطورة ونوعوا من طرائق بناء الحدث ورسم الشخصيات فنجد الشخصية التحليلية والمساعدة والمضادة وغيرها، وفي لغاتهم الفنية فأضحت أكثر إيحاء وتركيزا وابتعدت كل البعد عن الأسلوب الخطابي والسردي المباشر، كما انسلخت عن الموضوعات ذات الطابع التقليدي كالخطابة والمقامات والمناظرات وأدب الرحلات ...

ومن هنا " بدأ التطور واضحا في مراعاة سمات القصة القصيرة وعناصرها. وعنى الكتاب في هذه المرحلة بالبناء الفني للقصة فوجدت لذلك نماذج جيدة، كما ظهرت مثلا القصة التي هي عبارة عن رواية مضغوطة أو

التي تتبع طريقة "المونولوج الداخلي " وهناك من مزج بين هذه الطريقة وبين السرد العادي كما ظهرت أيضا القصة في شكل الرسالة والقصة في ثوب الأسطورة وما إلى ذلك " (ركيبي 1983م، ص 172.). فكان لهؤلاء الكتاب الفضل في انتعاشها، وتجلى ذلك في غزارة الإنتاج وتنوعه على مستوى المواضيع والأشكال والمضامين، والشيء اللافت للنظر، اقترابها من الواقع المعيش والتعبير عنه بملامسة مختلف مساحاته، يأتي في مقدمتها موضوع الثورة التحريرية، متأثرة في ذلك بالاتجاهات والتيارات الجديدة الوافدة من الغرب كالتيار الواقعي، الذي يستلهم موضوعاته من حياة الناس على اختلاف طبقاتهم وانتماءاتهم الاجتماعية، ونتيجة لذلك " التحقت القصة بدورها بالجبل تعايش الثورة وتكتب عنها، ومن القصاص من تفرغ للثورة، وتخصص فيها، ولم يكتب عن أي موضوع سواها مثل عثمان سعدي وعبد الله ركيبي، وفاضل المسعودي ومحمد الصالح الصديق ... " (شريبط 1998م، ص 179.).

وهكذا أضحت القصة تطرق مواضيع جديدة لم تكن متداولة من قبل، فعالجت الأمور المتعلقة بالهموم والمعاناة التي تجابه الإنسان الجزائري، وما خلفته من إحساس عميق في نفسيته، إضافة إلى الدور الفعال الذي اضطلعت به المرأة أثناء الثورة، والإشادة بالمجاهدين والمناضلين لما بذلوه من تضحيات جسام في سبيل تحرير الوطن من قيود العدوان الظالم، كما سلطت الضوء على كل مظاهر الاغتراب يأتي في مقدمتها اللغة العربية، والهجرة " فتعددت أساليب الطرح، وتميز من بينها بعض الكتاب الذين كان إنتاجهم يشير إلى أهمية خاصة، وإلى مواهب كامنة، وإلى طاقات واعدة مما جعل الصحف وعلى الخصوص مجلة " الفكر " تفتح لهم صفحاتها مرحبة بإنتاجهم، معتزة بنشره ... إضافة إلى بعض الروايات والمسرحيات. ولكن البداية المتواضعة أفضت إلى أن يكسب الأدب الجزائري قصاصين مشهورين اليوم، خرجوا من بين هذه الزمرة ليواصلوا إنتاجهم القصصي ثم الروائي على مستوى الجزائر، وعلى مستوى المغرب العربي والوطن العربي... " (الجابري 2005م، ص 150.).

وعلى سبيل التمثيل لا الحصر، نستحضر قصة (الفجر الجديد) لأبي العيد دودو، نشرها الكاتب في مجلة الفكر التونسية لسنة 1957 وتضمنتها مجموعتة القصصية بحيرة الزيتون التي استلهم فيها الكاتب أحداث ومجريات الثورة التحريرية، والتحريض على الالتحاق بها وجعلها ضمن الاعتبارات الأولى، لأن الحس الوطني في هذه – الفترة – يشكل البؤرة الأساسية بالنسبة للكتاب، فكان المضمون يحتل مركز الصدارة على حساب الأداة الفنية، كما يعد عبد الحميد بن هدوقة من الكتاب الذين يعدون بحق النموذج الأمثل الذي يستحق الذكر والتنويه، وذلك من خلال ما قدمه من أعمال إبداعية تتسم بالجودة من النواحي الفنية، حيث ساهمت أعماله في إثراء الساحة الأدبية، وهو " أحد كتاب جيل الثورة، امتاز على زملائه بثراء التجربة الأدبية وتنوعها، وممارسة الكتابة في فنون أدبية عديدة ... ومن أوائل الكتاب الذين وظفوا أدبهم للتعبير عن حرب التحرير ... " (بن قينة 2009م، ص 186.) فتعد المجموعة

القصصية " الأشعة السبعة " 1962م والتي تدور مواضيعها حول الثورة التحريرية من بين الأعمال البارزة في مساره الفني التي لقيت قبولا ورواجا من لدن الباحثين، حيث أحكم الكاتب براعة فنية عندما استلهم مجموعة من الوسائل التعبيرية التي تضفي على عمله نكهة خاصة، فبها يستطيع جذب القارئ والتأثير عليه، مع إحداث المتعة الجمالية واللذة الفنية، فعمد إلى توظيف الأسلوب الرمزي الذي يبتعد كل البعد عن الأسلوب التقريري المباشر في السرد، كما استثمر في بعض الأحيان توظيف الأسطورة وذلك لما تحمله من معاني ودلالات مشحونة بالجوانب الثورية على اختلاف أشكالها، فكان " للعدد " سبعة " دوره المتميز، خاصة وأنه يتكرر فأضفى هالة أسطورية على النسيج القصصي، لما فيه من السحرية ولما يوحي به رمي الحجرات من بعد ديني : رجم الشيطان ... سبع حجرات، سبع دوائر، سبع أشعة، السقي سبع مرات أيام سبعة. يكفي لهذا العدد أن يقرع الذهن بشكل متكرر ليستحضر القارئ السنوات السبع وهو عمر الحرب التي انتهت الأرض الجرداء فأصبحت معشوشبة " (شريبط 1998م، ص 110.).

فالمتتبع لنشأة القصة الجزائرية القصيرة " يلاحظ تطورا في النصف الثاني من الخمسينات، في عدد كتابها، ومادتها، وهو ما اطرد في الستينات، مادة ونضجا " (مخلوف 2013م، ص 54.). لذلك نستطيع القول: إن الحركة الأدبية بداية من مرحلة الثورة التحريرية إلى غاية الاستقلال عرفت تطورا ملحوظا، وقفزة نوعية لم يشهد لها مثيل في المشهد الثقافي الجزائري، فقد كانت ثورة الفاتح من نوفمبر اللبنة الأولى والدافع والمحفز الذي هز الوجدان والمشاعر والأحاسيس، لهذا، فإن استرجاع السيادة الوطنية، والحفاظ على معالم الهوية الوطنية الجزائرية، دفع في المقابل الأقلام لكي تنفث حبرها على الأوراق سطورا مفعمة بالحيوية من أجل التطلع نحو أفق جديد. فمنذ عام 1945 ومع المجازر الفرنسية بحق الجزائريين كما أشار إلى ذلك الكاتب السوري أحمد دوغان؛ فرضت الثورة نفسها على الأدب الجزائري، بما فيه القصة والتي تبلورت فكريا بعد عام 1954م، فبرزت أسماء في المشهد الثقافي أمثال: أحمد بن عاشور وزهور ونيسي وأحمد رضا حوحو وشريف الحسيني، ويعتبر أحمد رضا حوحو رائد القصة الجزائرية، فله مجموعة "صاحبة الوحي وقصص أخرى" نشرت عام 1954 ومجموعة "نماذج بحرية" نشرت عام 1955.

3. أسباب مرحلة الركود:

ومع المرحلة الجديدة التي شهدتها الجزائر باسترجاع الاستقلال عرفت نقلة تمخضت على إثرها أوضاع صعبة؛ انعكست آثارها على مختلف مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، فنتج عن ذلك أن أصيبت الحياة الثقافية بشكل عام والأدب بشكل خاص بشلل ساهم في ركودها، وأعاق حركتها نحو النمو، فضلا

عن ذلك، غياب الحس الفني الراقي، نظرا لافتقار الموهبة الأدبية، والأمر متعلق بالجيل الجديد الذي ظهر في الساحة الثقافية، وذلك راجع من دون شك إلى جملة من الأسباب:

1-عزوف كثير من الكتاب والأدباء عن الكتابة نتيجة الاستقرار الذي خيم على البلاد بشكل عام جراء غياب الدافع والمحفز " فإذا قدر لتلك الأصوات الشعرية التي كتبت قصيدة (التفعيلة) أن تستمر أغلبها فإن تلك الاستمرارية كانت متعثرة. فالشاعر أبو القاسم سعد الله قد تحول إلى الدراسات التاريخية والأدبية، ومحمد الصالح باوية انصرف إلى الطب، وأبو القاسم خمار ظل حضوره لا يملأ الفراغ، أما محمد الأخضر عبد القادر السائحي فما زال يكتب وبغزارة إلا أن ما يكتبه يحتاج إلى غربلة كبيرة شأن معظم شعراء الجيل " (بن قينة 2009م، 189.) كما تفرغ عبد الله ركيبي إلى مهنة التدريس بالجامعة.

2-مغادرة العديد منهم خارج الأراضي عقب الاستقلال للحاجة الملحة.

3-فقدان المثير الذي يزرع في النفوس الحماسة والرغبة الملحة التي تدفع الأقلام نحو الكتابة والتأليف، والتي كانت فيما سبق السلاح الحاد الذي يقف في وجه الاحتلال الفرنسي.

4-الدور السلبي الذي اضطلعت به الحركة النقدية في عدم مواكبة كل ما ينتج من الأعمال الإبداعية نتيجة " غياب القراءة، فضلا عن غياب النقد. والمقصود بغياب القراءة كون أدبائنا وشعرائنا ومثقفينا لا يتابعون ما يجد في حقل الإبداع، إنهم في هذا المجال جاهلون كل الجهل... يصدرون أحكامهم جزافا دون قراءة متمعنة ودون محاولة لتأمل الأبعاد الجمالية والفنية ..." (زتيلي 2008م، ص 158.).

5-وجود نصوص نقدية مبتذلة لا ترقى إلى مستوى الأعمال الإبداعية، والتي يغلب عليها في مجمل الأمر الرؤية الذاتية السطحية التي تتكئ على الموروث العربي القديم، ومرد ذلك أن معظم الجهود كانت " مركزة على القضية الوطنية وما ينشر من انطباعات نقدية وتعليقات إنما يكون في ضوء قربه أو بعده من النموذج القديم. ولذلك تميزت هذه الكتابات بالسطحية والظرفية ولم تستفد لا مما كان يجري في الساحة الأدبية والنقدية من مستجدات ولا مما استجد في الساحة العربية كما عرفنا لدى جماعة الديوان أو أبولو وما تبعها من نشاط نقدي أثارته التوجهات الجديدة في النقد وفي الكتابة الأدبية " (زتيلي 2008م، ص 151-152.).

6-القراءة السيئة لدى بعض كتاب هذه المرحلة، والأمر متعلق في هذا السياق، بالبنود الأساسية التي تقوم عليها ركائز النظرة الواقعية، حيث سخروا أقلامهم في تصوير الأحداث والوقائع التي كانت تعصف بالمجتمع الجزائري، بطريقة تعتمد التفاصيل الزائدة، وهذا ما يفسر لنا تلك الممارسة السلبية التي تجعل من الكاتب يقع في شراك السطحية والمباشرة في النقل، من خلال استحضار مواضيع تم هضمها من حيث الطرح والتحليل والمعالجة، وعليه،

فقد أدى هذا " الالتزام إلى بروز بعض الكتابات الضعيفة، كضغط عشرات من السنين في قصة واحدة، وغياب التركيز أو عنصر التشويق، وتراكم الأحداث " (مخلوف 2005م، ص 112).

4. مرحلة النضج والثراء:

ومع اقتراب فترة الستينيات على مشارف الانتهاء؛ سرعان ما فتئ هذا الأدب ينتعش ويتلون برؤية جديدة مغايرة لما كان عليه من قبل، فتميزت هذه المرحلة بالتحرر وكانت في الوقت نفسه عودة جديدة وإشراقة فنية للأدب الجزائري المعاصر؛ نتيجة الاستقرار السياسي والاجتماعي الذي بدأت رياحه تهب شيئا فشيئا " فتحققت خلال هذه السنوات (1968– 1972) عدة منجزات اقتصادية واجتماعية كتأميم الثروات الطبيعية، وظهور الثورة الزراعية، وإنشاء المصانع الضخمة ومد وسائل النقل والاتصال وانتشار التعليم، والطب المجاني، وغيرها مما يشبه أن يكون إطارا للثورات الثلاث الصناعية والزراعية والثقافية " (شريبط 1998م، ص 109).

كما شهدت سنة 1969م حدثا ثقافيا هاما يتجلى في إنشاء الصحف والمجلات التي فتحت أبوابها أمام الشباب لكي ينشروا إبداعاتهم كمجلة " آمال وجريدة الشعب " كقنوات مساعدة والتي من خلالها يستطيعون أن يوصلوا إبداعاتهم للقراء، ومن ثم، أضحت الحياة الثقافية تعرف متنفسا مغايرا ساعدت على ظهوره الأوضاع الجديدة، فطفق الأدب في هذه الآونة يشق لنفسه طريقا جديدا؛ بالخروج من الاهتمامات الضيقة والمحدودة إلى فضاءات أرحب وانشغالات أعمق، خاصة وأن الجزائر بدأت تعرف " عدة تحولات: تاريخية، اجتماعية، سياسية، اقتصادية، ولا سيما ثقافية خاصة على الصعيد الأدبي بحيث شهدت الساحة الأدبية محاولات جادة في مجال الرواية، خاصة مع مطلع السبعينات، بحيث الأجواء والأوضاع السائدة في المجتمع وما آل إليه هذا الأخير بعد ما خرب ودمر وهدم من طرف المستعمر، وبعد الاستقلال عرف الأدب الجزائري انتعاشا بحيث حظيت الرواية باهتمام العديد من الكتاب الروائيين ولمعت أقلام جزئية في هذا المجال وهي غنية عن التعريف أمثال : عبد الحميد بن هدوقة، الطاهر وطار، عبد المالك مرتاض، محمد عرعار، مرزاق بقطاش، ...وغيرهم " (ناصر 1985م، ص 166).

فعمد هؤلاء الشباب المبدعون إلى استحداث طرائق جديدة في التعبير، بعد أن أصبحت الطرائق الأولى مألوفة ومتداولة فلم تعد تملك العدة الكافية في إثارة المتلقي وجذبه والتأثير عليه، ولعل السبب الحقيقي لدفع هؤلاء هو الواقع الاجتماعي الذي يشكل بالنسبة إليهم البؤرة الأساسية التي تدفعهم قدما لاختيار أسلوب مناسب يستطيعون من خلاله معالجة المشاكل، وبالتالي، يصبح الواقع عاملا رئيسيا وسببا في ظهور لون على آخر ليفسح الأول للثاني المجال لكي يخوض زمام المغامرة مسايرا في ذلك التطورات الجديدة، وعليه، فقد نال فن الرواية المكتوبة باللغة

العربية في فترة السبعينيات الحظ الأوفر من الكتابة " فجذبت إليها عددا أكبر من الكتاب بفعل ما أصبحت تحظى به من مكانة متميزة بين سائر الأجناس الأدبية، لذلك انتقل إليها بعضهم بعد تجريب القصة القصيرة ..." (بايوش 2007م، ص 155). لأن القصة القصيرة كانت في يوم من الأيام الأسلوب الأنسب والملائم الذي استلهم منه الكتاب التعبير عن الأحداث والوقائع اليومية أثناء الثورة التي قلبت الموازين رأسا على عقب مخلفة آثارا جسيمة في أعماق الشعب الجزائري، ومع بداية التحولات الجديدة التي ما فتئت لبناتها الأولى تبزغ؛ أضحى أسلوب القصة القصيرة في اللحظة الراهنة غير قادر على احتواء المشاكل المتعددة وإلى إيجاد الحلول المناسبة للأسئلة التي يطرحها العصر، وهذا راجع من دون شك إلى الخاصية التي تتحلى بها، لأن من مميزاتها التعبير عن اللحظة الآنية مكتفية بتصوير جانب من جوانب الحياة الواقعية فلا تعتمد التفصيل، كما تختصر مجموعة من الأحداث في عبارة واحدة، فضلا على ذلك، إلى التجربة المحدودة الآفاق التي لا تشفي الغليل " أما الرواية فإنها تعالج قطاعا من المجتمع رحابة واسعة، لشخصيات تختلف اتجاهاتها ومشاربها وتتفرع تجاربها وتتصارع أهواؤها ومواقفها، ومن ثم كان الكاتب يحتاج إلى تأمل طويل...ثم إن الرواية تتطلب لغة طيعة مرنة قادرة على تصوير بيئة كاملة وهذا ما لم يتوفر لها سوى بعد الاستقلال " (ركيبي 1983م، ص 200).

ومن الأعمال الأدبية والتي تعد بحق اللبنة الأولى في الانطلاقة الفعلية لظهور رواية فنية ناضجة، نستحضر كل من رواية ريح الجنوب لعبد الحميد بن هدوقة، واللاز والزلزال للطاهر وطار، وما لا تذروه الرياح لمحمد عرعار... حيث تمكن هؤلاء الروائيون من السيطرة على الأداة الفنية فاستغلوها أيما استغلال نتيجة الوقائع السياسية الجديدة، خاصة وأن الجزائر في هذه المرحلة بالضبط (مطلع السبعينيات) هي بداية المرحلة الأدبية الجديدة، بفعل التحولات الجذرية المتمثلة في ذلك الانتقال من مرحلة ثورة التحرير للتفرغ لثورة البناء والتشييد، فانعكس هذا بطبيعة الحال على أعمالهم الإبداعية، فاتسمت بعدة سمات بارزة مست الشكل والمضمون يأتي على رأسها إحداث القطيعة مع الأطر السردية القديمة وتجاوزها إلى الانفتاح على فضاءات التجريب متخطين بذلك القوالب الفنية المألوفة لمعانقة المنجزات الفنية الجديدة. خاصة وأن الجزائر في هذه المرحلة انحازت " للمعسكر الاشتراكي، فأخذت الأفكار الاشتراكية تتسرب إلى العقول سواء عن طريق الحزب الشيوعي أو حزب الطليعة الاشتراكية ... أو عن طريق الكتابات الاشتراكية ... وزاد من هذا التأثر ما أعلن – لا حقا – من إصلاحات في عهد الرئيس " هواري بومدين " تمثلت في الثورات الثلاث : الزراعية والصناعية والثقافية " (ركيبي 1983م، ص 200).

وفي هذا السياق نستشف، من خلال عناوين الروايات التي ذكرناها سلفا بدايات اهتمام الكتاب الروائيين بمسألة الرمز الذي أضحى ظاهرة فنية بارزة في هذه الفترة نتيجة الإحساس العميق المفعم والمليء " بكثافة هذا الواقع

الجديد الذي كان من سماته البارزة ... فانفجرت العملية الإبداعية لديه التي دفعته إلى أن يلجأ إلى الشخصية الرمزية التي أصبحت علامة بارزة في طريق بناء معماري روائي أصيل، ترتقي به الرواية إلى مصاف النماذج العربية والعالمية من حيث الثقافة الدالة والصبغة الجمالية " (مخلوف 2005م، ص 111.) . فالشخصية الرمزية " رحمة " في رواية ريح الجنوب لعبد الحميد بن هدوقة تمثل في أبعادها الدلالية كثافة وقوة وعمقا من خلال الكلمات المعبرة التي أضفاها الكاتب عليها، والتي تعكس تلك الهالة من الشحنات المخيبة للآمال جراء المصائب التي مست الحياة الراهنة والمتمثلة في تلك التصدعات الغريبة. فالشخصية " رحمة " شخصية تمتاز بالحكمة والنظر الثاقب في اتخاذ أي خطوة تخطوها للأمام عن طريق التريث والتعقل، كما أنها حاملة للقيم والمبادئ.

وعلى هذا الأساس اصطبغت مواقفها وأفكارها بصبغة فلسفية، ويتجلى ذلك في مناقشتها مع نفيسة التي كانت " تعتقد أن التعلم يمكن أن يتم بواسطة الكلام والاستماع بعيدا عن الممارسة ... فكان هذا الاعتقاد يضحك العجوز ويدفعها إلى محادثة نفسها قائلة: ... لو رأت عرقي يتصبب، وأنا أرقم آنية أو أصقلها لو رأت ماذا سيصير إليه أتعابي وعرقي! لو عرفت كل ذلك، لأدركت أن التعلم بالكلام حلم من الأحلام " ثم تعود إلى " خيرة " أم نفيسة فتخاطبها قائلة: " ... أنت المخطئة ... دعيها تعد القهوة هي، وتغسل ثيابها بنفسها " (مخلوف 2005م، 101-102.) فإن الفكرتين السابقتين نستشف من خلالهما ملمحا يفضي إلى تلك الدقة المحكمة النابعة من لدن الشخصية المنوط، والذي ينم عن ذلك الموقف الفلسفي إزاء الحياة، وهو الموقف الذي يعلي من شأن قداسة العمل وتمجيده، والدعوة الملحة للجد والمثابرة، والمضي قدما لخوض زمام المغامرة دون تردد أو تخوف.

وعليه، يمكننا القول " إن شخصية رحمة ترمز إلى الروح الشعبية الأصيلة التي تحب العمل وتقدس الإبداع وتفضل الحكمة، وفي نفس الوقت تنبذ الظلم، وتكره التواكل والخذلان، وانعدام هذه الروح في أي مجتمع معناه فقد الحياة، والهدوء " (يايوش 2007م، ص 136.). كما لا يمكننا في هذا السياق أن نغفل عن الدور الذي اضطلع به الكاتب الروائي طاهر وطار من خلال أعماله الأدبية، التي أضحت ملامح الحداثة واضحة وجلية فيها، حيث مكنت هذه التحولات الجذرية الأديب طاهر وطار من البحث عن أدوات فنية جديدة؛ تكون جديرة في مسايرة واقع الحياة التي بزغت شمسها على هذا الوجود بثوب جديد مغاير عما كانت عليه من ذي قبل، من أجل الخروج من النمطية السائدة إلى معانقة حقل التجريب، والتحول من الخطاب المباشر التقريري في الأسلوب إلى الغموض والإيحاء. وتأسيسا على ذلك، فقد سعى الروائي إلى استلهام مجموعة من الوسائل التعبيرية والأساليب الفنية، التي من شأنها أن تقيم في صرح الكتابة إضافة نوعية في تصوير ونقل الواقع الجديد والتكيف معه، فوظف التراث بكل أنواعه من أسطورة ورمز وتاريخ وحكايات شعبية وتراث ديني... في أعماله الإبداعية بغية إبداع بنية جديدة تروم

الإجابة عن الأسئلة التي يطرحها العصر، والعمل على تقديمه – الواقع الجديد – في صورة أدبية متميزة تكتسي حلة فنية وجمالية.

فكان المتن الروائي في هذا الصدد يتصدر الواجهة من بين جميع الفنون النثرية؛ لأنه أضحى من أكثر الفنون استيعابا للتراث، وذلك من أجل تعزيز حضوره الفني، وبهذا، فقد شكلت كتابات طاهر وطار التي وظفت التراث الشعبي نقلة نوعية داخل الحقل الروائي الجزائري، والذي يعد من أكثر الأنواع التصاقا بشريحة الشعب، فقد لجأ الكاتب إلى توظيف هذه التقنية " الموروث الشعبي " لكي يحدث انسجاما مع طبيعة هذه المواضيع المتعلقة في معظمها بالسلطة والرعية، ومن بين النماذج التي يمكن استحضارها في هذا الصدد روايته الموسومة بـ " اللاز " التي أضفى على عنوانها تلك الصبغة العامية المحضة ذات النزعة الشعبية شكلا ومضمونا. حيث تضمن هذا النص عدة معتقدات شعبية منها الطيرة التي تجسدت في شخصية من الشخصيات الرئيسية " حمو " ، إضافة إلى توظيف المثل الشعبي فعلى سبيل المثال يقول كما هو موجود في الرواية " والله يا بن عمي ما يبقى في الواد، غير حجاره " مجسدا بذلك البعد التاريخي والاجتماعي النابع من روح الشعب، الذي يتمثل في ذلك الإنسان البسيط الفقير الذي يتصرف وفق ما تمليه عليه قناعاته وواقعه" (مخلوف 2005م، ص 107-108).

من هذا المنطلق، أضحى التراث الشعبي من منظور الكاتب أداة صالحة لإيصال مجموعة من الرسائل؛ لأنه في غالبيته يحضر في شكل إيديولوجية " فالتراث الشعبي يساهم في بناء الأدب بصفة عامة، مما يؤدي إلى بناء المجتمع، مواضيعه معظمها اجتماعية وسياسية، وبهذا أصبح الشعب يرتاح إلى هذا النوع من التعبير" (يايوش 2007م، ص 81.) ومن هنا، انتهج أغلب الكتاب هذا النهج في الكتابة لمعالجة قضايا سياسية سلطوية واجتماعية. وبما أن التراث الشعبي يأخذ حصة الأسد من بين مجموعة من المعتقدات، وما دام يرتبط أشد الارتباط بقطاع المجتمع، فقد وجد الكتاب ضالتهم في الاقتراب من هذه الشريحة بتوظيفهم لمثل هذه التقنية؛ لأنهم وجدوا فيه المنبع المناسب لخلق الحوار معها، وأن أهم نقطة تساعدهم في دفع هذا الحوار قدما نحو المسلك الصحيح هو الانطلاق من المعتقد المتفشي داخل البيئة المحلية.

وبالتالي، كان لهؤلاء الكتاب قصب السبق في ترسيخ الفن الروائي في الحقل الثقافي الجزائري، خاصة أن الفن إذا ساعدته جملة من الظروف كالاستقرار والأمن و التطلع والانفتاح، فإنه ينتعش ويرى النور ويذهب إلى أبعد الحدود، فاستطاعوا أن " يوفروا لأعمالهم الروائية قدرا من الفنية يتفاوت بتفاوت زاد كل منهم ورصيده من الممارسة الروائية، وقد اجتمع تراكم من النصوص الروائية في هذه الفترة بلغ (16) ستة عشر نصا روائيا وهو النتاج الذي حدا ببعض الباحثين إلى اعتبار أن السبعينيات عقد الرواية الجزائرية وتبلور اتجاهاتها " (يايوش 2007م، ص

80). وعلى ضوء ما سبق، نخرج بنتيجة مفادها أن الرواية الجزائرية التي كتبت في فترة السبعينيات من القرن المنصرم استطاعت هضم معطيات الواقع بأشكاله المختلفة باستعمال وسائل تعبيرية جمالية وفنية، والتي كانت بمثابة المدد الذي منحها طاقات تعبيرية لا حدود لها، والتي تفضي إلى التفنن بها والذي أتى أساسا وفق تناقضات الحاضر وصراعاته.

خاتمة:

وخلاصة القول: إن الحركة الأدبية في الجزائر منذ ظهورها إلى الوجود اتصفت بصفة الديمومة، فهي في سيرورة متجددة لا تحدها حدود ولا تكبلها قيود، رهينة التحولات والتغيرات التي تطرأ على الواقع المعيش؛ بفعل الظروف والعوامل التي كانت السبب في إحداث هذه الصيرورة، والتي تنضوي تحت الجوانب الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية، فشكلت للأدباء والكتاب مادة خصبة وذهنية جديدة تمخض على إثرها ظهور الحافز الفني الذي يدفع للكتابة، من أجل مواكبة الأحداث الجديدة وصياغتها في قالب فني يروم معالجة القضايا الاجتماعية والإشكالات المعقدة التي تعصف بالأمة؛ انطلاقا من لافتة مكتوب عليها ليس الفن مجرد وسيلة للتعبير عن الراهن، بل أداة فعالة بين يدي الكتاب مؤداها التغيير.

علاوة على ذلك، ارتبطت ارتباطاً شديداً بالجانب السياسي منذ نشأتها، مما انعكس ذلك على الأعمال الأدبية التي يأتي في مقدمتها المضمون الذي يحتل مركز الصدارة، كما تميزت الكتابة الأدبية في الجزائر بازدواجية اللغة بين العربية والفرنسية، لأنه يصعب على أي دارس الفصل بينهما، وزبدة الفكرة، راجع بصورة أساسية للنقاط المشتركة التي تجمعها خدمة القضية الجزائرية، وجعلها ضمن الاعتبارات الأولى، ويتعلق الأمر، هاهنا، بـ:

- مسالة الهوية والكفاح الوطني، من أجل استرجاع السيادة الوطنية المهدورة.
- تيمة الثورة التحريرية التي شكلت مدار السجال، فقد أحدثت انقلابا وجوديا انصهرت معه كل التيارات الفكرية والإيديولوجية واللغوية، فولدت لنا أدبا جزائريا معاصرا له سماته وخصوصياته وجمالياته.
- فعلى مستوى التفكير والعمل والبناء؛ عبرت هذه الأعمال الإبداعية عن الذات القومية والمصير الإنساني، من خلال إعادة ترتيب الأدوار والأولويات.
- الإدانة الصريحة للاحتلال الفرنسي، ويتعلق الأمر، بالانتهاكات التي طالت المبادئ، والانهيارات التي عصفت بالقيم، ما يؤدي بالكينونة إلى الإحساس بضياع الزمن المتعلق بالجوانب الأنطولوجية، من خلال الفقدان الذي يطال الروحي والجسدي المنضوي تحت حواف القلق الوجودي للإنسان، وهو ما تعكسه الكتابات المتمسكة بالهوية الثقافية والانتماءات الدينية والوطنية.

– كما شهدت الأوضاع الجديدة مع حلول بشائر الاستقلال إفرازات طرحت أسئلة مغايرة، غاب معها الحافز والدافع والحس السابق، وبتوقف الثورة ذابت تلك الحماسة المثقلة بالمقاومة والنضال، لهذا عرفت الجزائر " غداة الاستقلال وضعا انتقاليا صعبا انعكست آثاره على مختلف مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، وقد نتج عن ذلك أن أصيبت الحياة الثقافية بركود آني " (ناصر محمد 1985م، ص 161.)

– مع فترة السبعينيات شهدت الرواية الجزائرية المكتوبة باللسان العربي طفرة نوعية، فعلى مستوى الرؤية والكتابة حاولت كسر النرجسية الثقافية والأحادية الفكرية؛ بصورة خلاقة ومنتجة وفعالة، فكان المخاض الفعلي " على يد بن هدوقة بروايته ريح الجنوب ذلك الإنجاز الفني الهام الذي أضاف إلى الرواية العربية في الجزائر لبنة متينة في إطار خلق وترسيخ القيم الثورية الجديدة وتدمير الموروث السياسي " (مخلوف عامر 2011م، ص 114.) إضافة إلى الروائي الطاهر وطار في روايته الموسومة بـ: باللاز، حيث يعده بعض المؤرخين أب الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية.

فأدى هذا التطلع والاهتمام بالوجدان الجماعي للأمة بدفع عجلة الأدب إلى الأمام، حيث طفق يشق لنفسه طريقا، ويحقق ذاته مسايرا بذلك حركة الحياة بكل مستجداتها وتغيراتها التي تطرأ عليها من شتى النواحي إما اجتماعية أو اقتصادية وغيرها، فظهر في الساحة الإبداعية أسماء لامعة تبوأت مكانة مرموقة في رفوف الأدب. وبالتالي، أحرزت بذلك وثبة نوعية ودرجة كبيرة من النضج والثراء والتنوع، من خلال مشوارها الطويل الحافل بالإبداعات الجديرة بالاهتمام والدرس والتحليل، لتسجل أخيرا حضورها عبر خارطة الإنتاج الأدبي العربي والعالمي على حدّ سواء.

قائمة المراجع:

أبو القاسم سعد الله. (1985م)، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر

الجابري محمد صالح (2005م) الأدب الجزائري المعاصر، دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع، المغرب.

بن سمينة محمد (2003م)، في الأدب الجزائري الحديث(النهضة الأدبية الحديثة في الجزائر– مؤثراتها– بداياتها– مراحلها) مطبعة الكاهنة – الجزائر.

بن قينة عمر (2009م) في الأدب الجزائري الحديث، (تاريخا وأنواعا، وقضايا وأعلاما)، ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر.

رابحي عبد القادر (2003م) النص والتقعيد (دراسة في البنية الشكلية للشعر الجزائري المعاصر) دار الغرب للنشر والتوزيع وهران– الجزائر.

ركيبي عبد الله خليفة(1983م) تطور النثر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، ليبيا– تونس.

زتيلي محمد (2008) فواصل في الحركة الأدبية والفكرية الجزائرية، موفم للنشر، الجزائر.

شريبط. (1998م) تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة (1947م/1985م)، منشورات اتحاد الكتاب العرب.

مفدي زكريا، (2007م) اللهب المقدس، موفم للنشر– الجزائر.

مخلوف عامر (2005م) توظيف التراث في الرواية الجزائرية، (بحث في الرواية المكتوبة بالعربية)، منشورات دار الأديب، – وهران– السانية / الجزائر، نقلا عن، بشير بويجرة، الشخصية في الرواية الجزائرية.

مخلوف عامر (2013م) مظاهر التجديد في القصة القصيرة بالجزائر، الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، تيزي وزو– الجزائر.

مخلوف عامر (2005م) توظيف التراث في الرواية الجزائرية، (بحث في الرواية المكتوبة بالعربية)، منشورات دار الأديب، – وهران– السانية / الجزائر.

مخلوف عامر (2011م) الواقع والمشهد الأدبي، المكتبة الوطنية الجزائرية– الجزائر

ناصر محمد. (1985م) الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.

وغليسي يوسف (2009م) في ظلال النصوص، تأملات نقدية في كتابات جزائرية، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر.

ولد العروسي الطيب. (2012م) أعلام من الأدب الجزائري الحديث، دار الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر.

يايوش جعفر(2007م) الأدب الجزائري الجديد، التجربة والمآل، مركز البحث في الانثروبولوجية الاجتماعية والثقافية– الجزائر.